مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية
المجلد42 العدد (3) – 2026: 33–46

Damascus University Journal for engineering sciences
Vo 42 number (3) -2026: 33-46

البيئة الشعبية كمصدر تأثير على الفنان

نورس حمدان*[1]

*[1]. كلية الفنون الجميلة، قسم الرسم والتصوير، جامعة دمشق.
nawrashamdan@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

البيئة الشعبية من أهم العوامل المحيطة والمؤثرة في الفكر الإنساني، فمنذ وجود الإنسان بدأ التفاعل معها الذي يلبي من خلالها حاجاته ويتأثر بها ويعزز مدركاته الحسية فيها، فهي تشكل مصدراً ملهماً للكثير من الأعمال الفنية بجوانبها كافة، وتعزز أفكار الفنان من خلال ما يضيف ويأخذ من البيئة، وحينما يتجه الفنان نحو إنجاز أي عمل فني يصب جل اهتمامه في التعرف على ما هو موجود في محيطه المكاني بما يحمله من ثقافة شعبية.

إن الطبيعة هي المنبع الروحي للقواعد، والطبيعة قد تكون مماثلة في جسم الإنسان وعاداته وغرائزه، فالإنسان نفسه ظاهرة طبيعية من ظواهر هذا الكون الذي خلقه.

فالبيئة الشعبية مجال واسع، ويصعب الإحاطة به من جميع جوانبه، لذلك اختار الباحث بعض الممهدات التي تسمح بفهم الموضوع ما أمكن.

فتتناول هذا دراسة أثر البيئة الشعبية في الأعمال الفنية التي ظهرت منذ عصور موغلة في القدم، كان الإنسان فيها ينقش اللمسات الأولى لمسيرته الحضارية ويبتكر أول أبجدية لفنون التصوير، وهنا ينصب اهتمام الباحث على دراسة المظاهر والظواهر التراثية، وما يوضح التراث الشعبي أو يضيف إليه، وهي من الأمور التي ترتبط ببناء العمل الفني، وبنسيجها الداخلي، وعلاقتها بأسس التصميم، والعمليات الإبداعية، والأثر والتأثير المتبادلين بين التراث والفنان.

الكلمات المفتاحية: البيئة، الشعبية، تأثير.

تاريخ الايداع: 2023/8/24
تاريخ القبول: 2023/10/15

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب CC BY-NC-SA

http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index
ISSN (online): 2789-6854

The folk environment as a source of influence on the artist

Nawras Hamdan*[1]
*[1]. College of Fine Arts, Drawing and Painting, Damascusuniversity.
nawras.hamdan@damascusuniversity.edu.sy

Received: 24/8/2023
Accepted: 15/10/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

Summary:

The popular environment is one of the most important surrounding and influencing factors in human thought. Since the existence of man, he began to interact with it, through which he meets his needs, is affected by them, and enhances his sensory perceptions in them. It is an inspiring source for many works of art in all its aspects, and it enhances the ideas of the artist through what he adds and takes from the environment. And when the artist goes towards the completion of any work of art, he devotes most of his attention to identifying what exists in his spatial surroundings, with what he has form popular culture. Nature is the spiritual source of the rules, and nature may be similar in the human body, habits and instincts, for man himself is a natural phenomenon of this universe that he created. The popular environment is a wide field, and it is difficult to encompass it in all its aspects, so the researcher chose some preliminaries that allow understanding the subject as much as possible. This study deals with the impact of the popular environment on the works of art that appeared since ancient times, in which man would engrave the first touches of his civilized career and invent the first alphabet for the arts of painting. Here the researcher's interest is focused on studying appearances and heritage phenomena,and what clarifies popular heritage or adds to it , and it's one of the things that are related to the construction of the artwork, its internal configuration, its relationship to the foundations of design, creative processes, and the mutual impact and influence between the heritage and the artist.

Keywords: environment, popularity, influence.

المقدمة (Introduction):

إن الفنون الشعبية بصفة عامة تعود إلى الأصول المحلية للشعوب وتعبر عن طابعها القومي الأصيل مما يجعل لها أهمية إنسانية كبيرة حيث تشكل طريقا لحضارة الإنسان عبر العصور. فالبيئة المحلية للشعوب من العوامل المحيطة المهمة التي تؤثر بالفنان بشكل أو بآخر في تعزيز مدركاته الحسية حيث أن البيئة الشعبية بكل عناصرها تشكل مصدرا ملهما للكثير من الأعمال الفنية والتي تدعم وتعزز أفكار الفنان من خلال ما يقوم ويحور ويضيف ويأخذ من بيئته أشكالاً للتعبير عن العلاقة القائمة بين الفنان وبيئته الشعبية. فحينما يتجه الفنان نحو إنجاز أي عمل فني يصب جل اهتمامه في التعرف على ما هو موجود في الطبيعة من ثم يتعرف على الأداء لكي يمارس عمله الفني."إن الطبيعة هي المنبع الروحي للقواعد، والطبيعة قد تكون مماثلة في جسم الإنسان وعاداته وغرائزه، فلأنسان نفس ظاهرة طبيعية من ظواهر هذا الكون الذي خلقه" (رياض،1986، 11) فالعلاقة بين الإنسان وبيئته يتوقف على إدراكه لتلك البيئة ومعرفته بها فالإنسان يعيش في مجتمع إلى جانب ما يحيط به من بيئة طبيعية هناك أيضا بيئة اجتماعية لها نظمها وعقائدها وعاداتها وتقاليدها وفنونها ولها تاريخها فالمجتمع يتعامل مع البيئة التي يعيش فيها والعلاقة بينه وبينها متوقفة على معرفة الفرد بهذه البيئة وإدراكه لعناصرها ومدى تفاعله معها، و فهم هذا كله من قبل الفنان يكون لديه مصدراً من مصادر التذوق الجمالي وليس تسجيلاً لمظاهر المكان والطبيعة، " إن الفن إذا لم يكن سوى تسجيل لمظاهر الطبيعة لكان أقرب تقليد هو أكثر الأعمال الفنية إقناعا"(ريد، معنى الفن، 192)

ومهما تعددت الفنون الشعبية وتنوعت مظاهرها ومجالاتها المختلفة فهي مصدر هام ومتسع يشبع إلهام الفنانين كما أنها ترضي ذوق من يشاهدها بوعي ورؤية متفتحة كذلك فهي من المجالات الهامة التي يمكن الاعتماد عليها في تربية النشء من الوجهة الفنية والجمالية. ولقد ثبت أن دراسة فن أي شعب من الشعوب إنما تؤدي إلى تكوين فكرة واضحة تعبر عن مستواه الحضاري وما وصل إليه من خبرات وتجارب في شتى جوانب حياته المادية والثقافية والروحية ، ولذلك أن الفن لم يغفل ظهور الأنماط المحلية المختلفة التي تشكل في حد ذاتها تأثيرا خاصا على الحركة العالمية للفنون الشعبية. فالكل شعب من الشعوب تراثه الشعبي الذي يشكل قوام الحياة في بيئته الشعبية وهو ليس مجرد ركيزة تدل على أصول ومراحل تاريخية قديمة لم تعد لها وظيفة تلائم تطور المجتمع فالتراث الشعبي هو الحصيلة الكاملة لثقافة الشعب وهو الذي يصوغ الإطار العام للحياة الشعبية وبالتالي فهو يقوم بوظائف حيوية وأساسية للأفراد والجماعات فيربط ماضيها بحاضرها ويحقق وجودها الإنساني مع الأمم والشعوب الأخرى ولكنه يرتكز على تقاليد يحافظ عليها وبفضله أيضا يتعرف المرء على الآداب والفنون والتقاليد الشعبية والتي تؤكد بدورها على تصورات الإنساني الشعبي ونظرته وعلاقته بيئته الشعبية على مر العصور.

وتشكل البيئة الشعبية بجميع عناصرها مادة غنية في تكوين الخصائص الثقافية والفنية والاجتماعية لكل أمة كونها تمتلك عناصر تعبيرية أصيلة مهما تنوع مستوى ذلك التعبير. ومما لا شك فيه أن البيئة الشعبية في القرنين الماضيين كان لها المكانة المهمة عند الباحثين وعلماء الفلكلور مع يقظة الشعوب والإدراك بأهمية البيئة الشعبية ودراسة تراثها بعد أن اتضحت أصالتها وقيمتها ومميزاتها المتعددة ومن هذا المنطلق قامت كل حركة قومية في العالم على دراسة التراث الشعبي باعتباره المادة الأولى لمعرفة تاريخ الشعب ودراسة فنونه وآدابه ومظاهر حياته الشعبية المختلفة. كما أن الاهتمام المتزايد بالبيئة الشعبية جعل الرأي العام أكثر تقبلا لها خاصة من قبل الأدباء والفنانين والباحثين والعلماء الذين اهتموا بها للكشف عن جوانب خفية من التراث الشعبي لإدراكهم بمزاياها

http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index
ISSN (online): 2789-6854

واعتبارها مادة غنية للبحث العلمي والفني ووسيلة للاستلهام منها في مجال الأدب والفن والتربية الحديثة.

فالبيئة تثير في الفنان الإحساس والخيال فالمتأمل في التراث البشري الهائل يرى كيف ترجم الفنان البيئة من خلال كشفه للعلاقات والمتوافقات والتباينات. فقد بدأ هذا الحوار بين الفنان وبين البيئة منذ الفن البدائي وبقي هذا التأثير خلال العصور المختلفة.

الدراسات المرجعية (Literature Review):

الفصل الأول، مصطلحات في حدود الدراسة البيئة :

ويرجع الأصل اللغوي لكلمة بيئة إلى "ب – و – أ". وفي اللسان العربي القديم بوأ، بمعنى رجع، تَبَوأ منزلاً أي نزل به وقد تطورت الكلمة إلى أن وصلت إلى البيئة بمعنى حال المكان الذي يعيش فيه الإنسان وهو يُستخدم بكثرة في العصر الحالي" (www.almaany.com) فالبيئة بمفهومها العام هي الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان يتأثر به ويؤثر فيه، هذا المجال قد يتسع ليشمل منطقة صغيرة جداً لا تتعدى رقعة البيت الذي يسكن فيه. وعليه، فإن كلمة بيئة تعني كل العناصر الطبيعية والحياتية التي توجد حول وعلى سطح وداخل الكرة الأرضية. وإذ تشمل جميع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيش فيها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات التي تقوم بها .

الشعبية:

أما مصطلح الشعبية، فقد شكَّل موضوعاً خصباً لعدد من الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجيا والسياسية، وقبل التطرق لعلاقة مفهوم الشعبية بالعلوم الأخرى نريد أن نستعرض مصطلح أو مفهوم الشعبية في بعض القواميس.

جاء في معجم المحيط، أن: "الشَّعْبُ: كالمنْع: الجمْعُ، والتفريق، والإصلاح، والإساد، والصَّدْع، والتفرق، والقبيلة العظيمة، وموصل قبائل الرأس، والبُعْدُ، والبعيد" (القاموس المحيط، ص 865)

والشعبية مشتقة من كلمة "شعب – الشعب: الجماعة الكبيرة ترجع لأب واحد، وهو أوسع من القبيلة – الجماعة من الناس تخضع لنظام اجتماعي واحد – الجماعة تتكلم لساناً واحداً" (القاموس المحيط ، ص 749)

ومصطلح "شعب"، يعني "جماعة أنثوغرافية. كما تعني أمة منظوراً اليها مباشرة دون اعتبار التنظيم السياسي – الحكومة أو الدولة، أمة في الأصل أي جماعة تربطها رابطة أو أكثر: الأمة الإسلامية، لكنها تميل الآن للاقتصار على الجماعة ذات الحضارة المشتركة قومياً داخل أو خارج دولة، وفي اصطلاحات القومية العربية فأن الأمة تفيد مجموع مواطني العالم العربي خلافاً لشعب التي تطلق أحياناً على مواطني بلد عربي واحد، قوم في الأصل، جماعة من الرجال، وتفيد الأن قبيلة أو شعباً صغيراً، قومية مترادفة إلى حد ما مع أمة، سكان تعني ساكني أي بلد بغض النظر عنن اعتبار القومية والعنصر لأغراض النظام العام، الصحة العامة.. الخ. مواطنون مترادفة وتعني بصفة خاصة السكان المتمتعين بجنسية البلد، ملة في الأصل دين أو طائفة واستعملت في العهد العثماني بمعنى أمة أو شعب جماعة، سلالة" (اسكندر، ص 208 – 209) واستعملت كلمة الشعبي أولاً في أواخر القرن الخامس عشر كمصطلح قانوني. فالفعل الشعبي هو فعل قانوني يمكن أن يباشره أي شخص: كانت الأفعال الشعبية في مختلف الحالات تصدر عن أفعال ومراتب جيدة.. وفي القرن السادس عشر صار يستخدم للإشارة فقط إلى الناس من ذوي الأصل الوضيع.. وبدءاً من القرن التاسع عشر صارت الشعبي تستخدم للإشارة إلى صور الفن والتسلية التي ترجع إلى الناس العاديين: الصحافة الشعبية.. الفن الشعبي.. وأول ربط فكري قابل للحياة فعلاً ومفصل بين الشعبي والثقافة. طُوِّرَ في أواخر القرن الثامن عشر كنتيجة للاهتمام المتنامي بثقافة الشعب. ففي أثناء اكتشاف الشعب صاغ مصطلح الثقافة الشعبية للمرة الأولى يوهان غوتفريد هرد...

ويمكن القول في هذه الإضاءة إن كلمة الشعبي ليس لها معنى أو تعريف محدد ومختزل، بل هي دائما عالقة بقضايا الثقافة والسلطة والموروث والعادات والبيئة والمكان المحيط، والجماعة واللغة المشتركة، ومازال هذا المصطلح محل جدل لكثير من الباحثين والمهتمين في البيئة الشعبية من خلال ربطها بالتراث الشعبي.

تأثير:

وردت في معاجم اللغة العربية كلمة تأثير والتي تعود إلى الأصل الثلاثي (أثر): إن مفردة "أثر" مكونة من: "الهمزة والثاء والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي. قال الخليل: لقد أُثِرت بأن أفعل كذا، وهو همٌ في عزم. والأثَر بقية ما يُرى من كل شيء، وما لا يرى بعد أن تبقى فيه عُلْقه. والآثَار الأثَر، كالفَلاح والفَلَح، والسَّدَاد والسَّدد. قال الخليل: أثَر السيف ضَرْبته، وتقول: من يشتري سَيْفي وهذا أثَرُه، يضرب للمُجرَّب المُخْتَبَر.. قال الخليل: والأثَر الاستقفاء والاتّباع" (أحمد بن فارس القزويني، 1979، 53). وتتبع أثر شيء: خط، أو لون، أو شكل، أو كتلة.. الخ.

والأثر: "ما بقي من الشيء على مر السنين، ويقال أثّر في الشيء أي ترك فيه أثراً. وهو "نتيجة الشيء، وله معان عدة: الأول بمعنى نتيجة، وهو الحاصل من الشيء. والثاني بمعنى العلامة، وهي السمة الدالة على الشيء. والثالث بمعنى الخبر، ويطلق على كلام السلف، لا على أفعالهم. والرابع ما يترتب على الشيء.. والآثار جمع أثر، وهي اللوازم المعللة بالشيء. وقد يطلق على الشيء المتحقق بالفعل، باعتباره حادثاً عن غيره، وهو، بمعنى ما، مرادف للمعلول أو المسبب عن الشيء" (جميل صليبا، 1982، 37)

الفصل الثاني، البيئة الشعبية مصدر تأثير على الفنان عبر العصور المختلفة:

كان الفن مصاحباً للإنسانية منذ نشأتها، فلم يعرف زمن معين من الأزمنة، فالحياة والفن متلازمين دائماً، بل أن الفن كان جزءً من حياة الإنسان اليومية يعينه في صراعه من أجل البقاء، فقد عرف الإنسان منذ أقدم العصور لغة التعبير بشتى أشكالها فابتدع الشكل الذي يعبر به عن رغباته ومتطلباته.

ومع النمو الاجتماعي وتشكيل أول نواة للحياة الاجتماعية، ابتدأ الفنان يخضع للظروف الاجتماعية فهو في الحقيقة حصيلة البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها، وليس من اليسير فصل الفنان عن بيئته فهو يتفاعل معها ويتأثر بها.

ومن خلال ذلك اصطبغ الفن بالحياة اليومية التي أثرت بدورها على التعبير الفني وأصبح الفنان خاضعاً للظروف العقائدية والدينية القائمة في بيئته فهو يتفاعل معها ويتأثر بها.

لقد تأثر الفنان البدائي في بيئته وعبر عن روح الحياة التي تواكب الانسان في حياته البسيطة وتصوراته التلقائية، فالفنان البدائي الذي كان يأوي إلى الكهوف في الجبال لتحميه من غوائل الجو والوحوش، كان ينقش على شظايا العاج والقرون وجدران كهوفه بالرسوم الرائعة التي تسجل عالمه وما يحيط به من حيوانات يسوقونها الأشخاص ومناظر الصيد وغيرها، وكانت هذه الرسوم عنده تعتبر من وسائل السحر، للوقاية من أعدائه أو الشر أو لتمكينه من اقنص فريسته.

ومهما يكن الأمر، فالشيء الواضح أن هذه الرسوم توضح مظاهر حياته الشعبية وتعبر عن معتقداته السائدة في تلك الأزمنة، وتعتمد على الخطوط وبالتالي فهي تعكس نزعة فنية لها طابع شعبي، فالنقوش والرسوم الكبيرة التي زينت جدران الكهوف مثل كهوف شمال أفريقيا بالجزائر (تاسيلي) شكل (1)

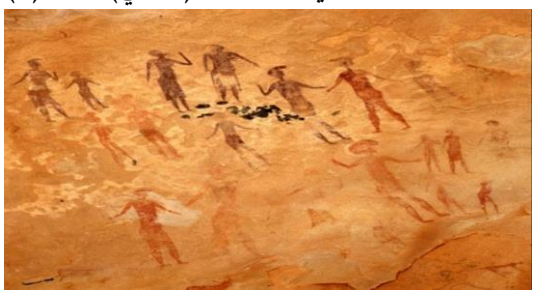

الشكل(1) صورة من الحياة اليومية مرسومة على جدار كهف تاسيلي في الجزائر

التي رسمها الفنان البدائي بأسلوب عفوي في التعبير تعكس الحياة اليومية، وتتلاءم أيضا مع معتقداته وأحاسيسه الفطرية.

وبالانتقال إلى الفن المصري في العهود الفرعونية يرى المتأمل الشواهد الكثيرة التي تدل على انصراف الفنان إلى رسم ونحت ما يدور في مخيلته من موضوعات تمثل مختلف مظاهر الحياة اليومية، إذ يشاهد من خلا هذه الأعمال الفنية كيف صور الفنان المصري الحياة الشعبية سواء في التعبير عن حياة الطبقة العاملة بجميع حرفها ومهنها أو حياة الفلاحين الريفية كأعمال الفلاحة من حرث وزرع وحصاد وري شكل (2)

الشكل رقم(2)

وكذلك عبر الفنان المصري عن كل ما يتعلق بحياة الشعب من عادات وتقاليد وطقوس، تقام في أفراحهم وأحزانهم.

إلى جانب الموضوعات السابقة استوحى الفنان المصري الحياة الشعبية [2] مثل بعض القصص التي تمثل أنواع الحيوانات في ما يشبه قصص كليلة ودمنة، حيث تمثل فيها أسطورة شعبية تزعم قيام دولة من الجرذان لتقضي على بطش وغدر مملكة القطط وغيرها من الحيوانات.

وإذا أردنا استقصاء أثر البيئة الشعبية في الفنان السوري والعراقي القديم حوالي (3300)ق.م نجد أنه كان من المحبب إلى الفنان خلال هذا العهد تزين سطوح أختامه بصفوف من الحيوانات الأهلة التي تقف أمام حظائرها وبجانبها الراعي يطعمها هذا المشهد كثيرا ما يصور على الأختام في بلاد ما بين النهرين وكان الفنان ينقش في ذلك العهد على الختام الاسطوانية بعض من مظاهر الحياة الشعبية كالحرفيين والفلاحيين والرعاة والنساء العاملات وهن يقمن بأعمالهن هذا بالإضافة لتأثير الفنان بالعقائد والاساطير الشعبية التي انعكست على أعمله الفنية.

وعند التقدم في التاريخ نحو العهود الافريقية والرومانية نجد أن المنبع الرئيسي الذي استوحى الفنان منه موضوعاته هو عالم الاساطير والحكاية الشعبية التي صفاها خيال شعب اليونان ، ويشير ثروت عكاشة إلى تأثير الفنان الإغريقي بهذا العالم الأسطوري في حديثه :

" وإذا علمنا أن معظم المنحوتات والتصاوير على الأواني الخزفية وغيرها من المنجزات الفنية في عهد الإغريق كانت تنحت مثل زميلاتها من الأعمال المسرحية والاوبرالية فتستوحي عالم الاساطير بما يحفل به من آلهة وأبطال "

(عكاشة، 7)

أما في مصر، فقد عبر الفنان في هذه الفترة ايضاً عن جوانب منتزعة من الحياة الشعبية متمثلة بوجوه "الفيوم" (الخادم ،26) التي تتسم بالطابع الشعبي وتتميز بالرقة والبساطة والبراءة وتعبر في إنسانيتها عن أشخاص من الصميم المحيط الشعبي، والفنان المصري في ذلك العهد لم يصور الآلهة أو وجود حكام أو ابطال مختلفة من الأساطير القديمة بل استلهم من الواقع الشعبي.

والمتتبع لأثار البيئة الشعبية في العهود "المسيحية" (بهنسي، 1966 ،207) يرى استلهام الفنان من الأساطير الشعبية كأسطورة اورفيوس orvius (آله الموسيقى) بالإضافة لمواضيع دينية ذات سمات شعبية مأخوذة من التوراة القديمة أو من الإنجيل المقدس وجميعها مواضيع تمثل الحياة الفقيرة الساذجة وتعبر عن الطيبة والمحبة والإخلاص، وأجدر تمثيل في هذا الصدد الفن القبطي الذي لم يغفل المشهد اليومي للإنسان بكل عاداته وتقاليده وموروثاته من التقليد المصري القديم "يمكن أن نرى خصائص الفن القبطي في أنه فن شعبي أساساً وفي أنه يجمع على نحو خاص بين الديني والمدني، أو بين القدسي والأرضي، وأنه فن الجمال لا فن الضخامة، فهو يقطر أو يكثف، وبالتالي فإن ليس فن المحاكاة للواقع بل

تمثيل لجوهر الواقع وما وراء الواقع."(الفن القطبي في مصر،2000، 17)

وكذلك توجد في العهود العربية الاسلامية أمثلة كثيرة عن تأثير الفنان العربي بالبيئة الشعبية، ففي مقامات الحريري التي عني بها الرسامون سواء كانوا مصريين أو عراقيين يلاحظ من خلالها تمثل الحياة اليومية وتظهر أيضا منها الانفعالات والملامح والمشاعر الانسانية المختلفة.

ومما يلفت الانتباه في مقامات الحريري رسوم الفنان _ يحيى بن محمود الواسطي (1237) التي تعتبر شاهداً بارزاً وهاماً عن التأثير بالبيئة الشعبية، ففي انتاجه الفني تبرز المشاهد الواقعية التي تمثل الحياة اليومية كما في العمل الفني نقاش على مقربة من قرية شكل (3)

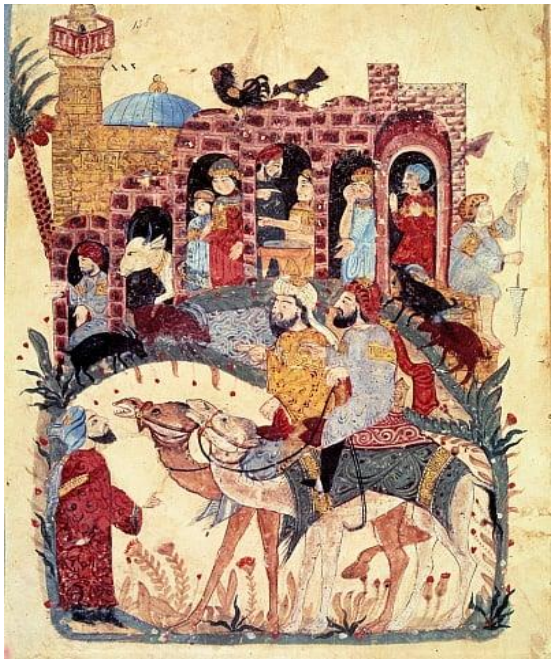

الشكل رقم(3) يحيى بن محمود الواسطي

حيث يشاهد فيه المسجد بمأذنته والسوق المقبب الذي يظهر فيه الناس وهم يتساومون أو يشترون من الباعة كما يبرز الحيوانات كالبقر والقطيع من الماعز بعضها يرتوي من بركة الماء في حين توجد على السطوح دجاجة وديك وامرأة تمسك بمغزل من ناحية اليمين، ويشاهد ايضاً المسافرون على الجملين يلتقيان على مقربة من القرية، هذه المشاهد تعبر بوضوح عن حياة القرية بمظاهرها الشعبية المختلفة.

وفي أعمال فنية أخرى رسم الواسطي الراعية وهي تسوق الابل شكل (4)

الشكل (4) يحيى بن محمود الواسطي

ومنظر يمثل موكب قافلة الحجاج في طريقها إلى مكة، كما عبر الفنان عن الامرأة التي تعاني آلام المخاض أثناء **الولادة** شكل**(5)**

الشكل(5) يحيى بن محمود الواسطي

ويعتبر هذا الموضوع خير شاهد على التعبير عن العادات والمعتقدات الشعبية التي تلازم الولادة حيث صور الواسطي بواقعية صادقة غير مزيفة تثير الدهشة لصراحتها، كالمرأة التي تحمل المبخرة والرجل الذي يكتب التميمة (التعويذة) لتيسير

عملية الولادة بسرعة والنجاح، في حين رسم رجل يمسك بأسطر الأب لمعرفة طالع الطفل.

وفي العصر التيموري في أيران اهتم الفنان – بهزاد – برسم موضوعات تمثل الحياة اليومية كلوحة العمال، كمل عبر الفنان الايراني – مير سيد علي– في الشكل(6) عن موضوعات تمثل حياة الريف والمدن بتفاصيل دقيقة وأسلوب واقعي.

الفصل الثالث، التراث الشعبي في أعمال بعض رواد الحركة الفنية في الوطن العربي لعل من المفيد التطرق إلى التجارب الفنية الهامة لبعض الفنانين العرب على سبيل المثال لا الحصر للكشف عن رؤيتهم الفنية النابعة من صميم البيئة الشعبية، ويرجع تاريخ استلهام الموضوعات الشعبية إلى رواد الحركة الفنية في الوطن العربي، فقد حاول عدد غير قليل من الفنانين العرب الاقتباس من البيئة الشعبية لتدعيم انتاجهم الفني ويبدو واضحا من خلال أعمال محمد ناجي (مصر) أنه قد انتقى الشخصيات الشعبية كعازف الرباب والزمار وصياد السمك والسقاء وبائع عرق السوس وموكب المحمل ومناظر الأسواق في الريف والمدينة، هذه الشخصيات وغيرها، تصور روح الأنسان الشعبي وتعبر عن طابع الأنسان البسيط والأصيل فهو بذلك استطاع النفوذ إلى الشخصية المصرية ليعبر عن روحها الشعبية الصميمة مستلهماً وحيه من مظاهر الحياة الشعبية. كما في الشكل (6)

الشكل رقم(6) لوحة المحمل محمد ناجي

والمتتبع للأعمال الفنية محمد الفاطمي (المغرب) فائق حسن و نزار السليم (العراق) ومصطفى فرخ (اللبنان) ابراهيم غنام و ابراهيم هزيمة (فلسطين) ومحمود مختار وراغب عياد وحامد ندة (مصر) ونعيم اسماعيل ومحمود جلال و ممدوح قشلان (سورية) لابد أن يجد أثر الحياة الريفية الشعبية في أعمالهم فقد عبروا بصدق عن الأنسان الشعبي فصورا كفاحه اليومي وقضاياه بحب وشرف، وهذا ما تحدث عنه ممدوح قشلان مشيراً لتأثيره في بيئته:"أنا ابن هذه المدينة العريقة.. نشأت وترعرعت في أزقتها وحاراتها القديمة ضمن حي القنوات، في هذا الحي العتيق تشربت من كل شيء أصيل فيها عاداتها تقاليدها، أجوائها المفعمة بالتدين، والأصول، والأخلاق.. على مستوى الشكل كان بيتنا القديم عبارة عن صورة مصغرة لقصر العظم الأثري.. بحيرات مائية وأشجار ونباتات ورود وأحجار ملونة وفسحة مفتوحة على السماء والياسمين وزقزقة العصافير.. لذلك تبقى دمشق هي ذكرياتي الأجمل.. هي أمي الحنون التي احتضنتني طفلاً يتيماً وشاباً وكهلاً وفناناً وإنساناً.. دمشق هي معشوقتي الأبدية الأزلية التي سحرتني في وقت مبكر.. وحين أقدمها في لوحاتي أرسمها بحلتها الأجمل.. أرسمها كما أحلم بها أن تكون .."

(https://thakafamag.com) فبرزت في أعمال ممدوح قشلان الحياة الريفية والزخارف والأزياء الشعبية المحلية وعبر عنها بأسلوب واقعي تبرز فيها العلاقات التكعيبية والمعمارية الشعبية مع محاولة ظاهرة في تبسيط الأشكال واختزالها (7)

الشكل رقم(7) ممدوح قشلان

أما بالنسبة للفنان –راغب عياد – فقد أثارته الحياة الريفية وعبر عنها بصدق الشكل (8)

الشكل رقم(8) لوحة الراعي راغب عياد

وفي هذا الصدد يؤكد الفنان بحديثه: ".. أنيي كنت أعشق التغلغل في صميم الحياة الشعبية، حياة أولاد البلد، حياة الفلاح، لكي أدرس عن قرب عاداتهم وتقاليدهم فأخذت في بحث هذه الحياة بنظرة تحليلية لما تحوي من إنسانية بريئة ومتعة نفسية .. حياة الفلاح والفلاحة والعامل هؤلاء حقاً هم العناصر التي أحببتها وإليهم يرجع الفضل في معاونتي على اطلاق المواهب الفنية في قرارة نفسي."(الفنون الشعبية، سلسلة الثقافة الشعبية، 22)

ومن الفنانين الذين توجهوا إلى البيئة الشعبية وقدموا تجربة فنية متميزة يذكر الباحث تجربة حامد ندة الذي استوحى من البيئة الشعبية برؤية تشكيلية ومختلفة عن تجربة عياد، فقد استلهم من الحياة الشعبية المصرية كألعاب الأطفال في الحياة الشعبية ومن الرسوم الفطرية على الجدران والوحدات الزخرفية الشعبية السائدة، وقد استخدمها جميعاً بعد تحليل أشكالها معتمداً على التلخيص والبساطة والغاء البعد الثالث، واضافة مسحة تعبيرية واضحة على أشكاله ورسم الأشخاص في وضع جانبي شكل (9)

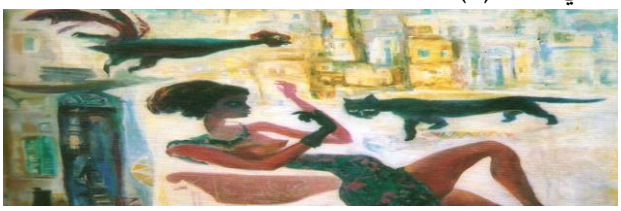

الشكل رقم(9) حامد ندا

وإذا امعن المتأمل النظر في أعماله سوف يكتشف أن أعماله الفنية مستوحاة من الروح الشعبية المصرية بدون أن يظهر الفنان العلاقات التي تميز الشخصية الشعبية الفردية والمحلية ليؤكد على الدلالات الإنسانية للفرد الشعبي، حيث يبرز موقفه الإنساني العام وهذا على خلاف تجربة راغب عياد التي تظهر فيها هوية الانسان الشعبي، وهذا ما يشير إليه الفنان نفسه في صدد مقارنة تجربته مع تجربة عياد حيث يقول:

".. وقد تبينت فيما بعد أيضا أن بيني وبين راغب عياد في لوحاته عن الحياة الشعبية قرابة روحية وأن كان الفارق شاسعاً بين معالجة كل منا للموضوع الشعبي وللشخوص الشعبية، لقد صور راغب عياد بموهبة غير مذكورة واقع الحياة الشعبية، أما أنا فقد عنيت بالغوص إلى ما تحت الواقع مقتنصاً ما في النفس الشعبية من رواسب لا تلبث أن تنعكس على سطح البيئة الشعبية وسلوكيات رجالها ونسائها "(مجلة ابداع،1948، 125)وهنالك أيضاً فئة أخرى من الفنانين حاولت أن تستمد عناصرها الشعبية من العادات والتقاليد والمعتقدات التي تلازم الأنسان الشعبي في حياته، فقد كانت لها الأثر الكبير على أعمالهم الفنية في شتى الأعمال الشعبية التي عالجوها وهذا ما يتبدى من اعمال الفنانين محمد علي الرباطي ومولاي أحمد الادريسي ونجيب يوف ومحمد بن علال (المغرب) –يحيى التركي وعلي بن سالم وعمار فرحات ورجاء أبو غزالة وكايد عمر (الأردن)– صفية بن زهر عبد الهادي الجزار ومحمود سعيد و سيد عبد الرسول وزكريا الزيني، حيث يلاحظ من خلال أعمالهم الفنية اقتحام البيئة الشعبية لترفع الحجاب عن عالمها الداخلي المشبعة بالخرافات وسحر المشعوذين وهمسات العرافين ومختلف مظاهر الحياة الشعبية بعداتها وتقاليدها ومعتقداتها . ومما يلفت الانتباه في هذا الاتجاه تجربة الفنان سيد عبد الرسول – الذي يعتبر من الفنانين الهامين الذي استلهموا من البيئة الشعبية في أعماله الفنية التي تمثلت في تصوير مظاهر الحياة الشعبية والمقاهي وتجمعات الناس في الأسواق والأفراح وموضوعات الريف والموالد الشكل(10)

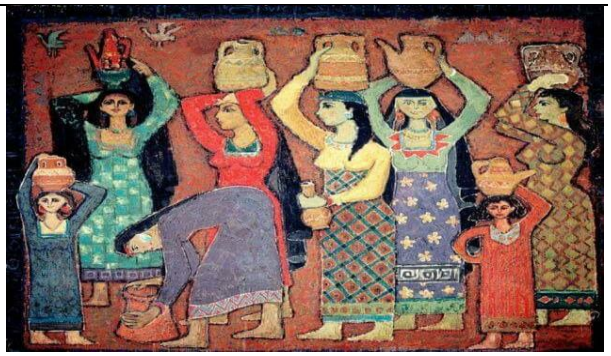

الشكل(10) سيد عبد الرسول

ويتسم أسلوبه بالواقعية التي تميل نحو التسطح والتأكيد على الخط في أشكاله حيث يثريها بالنقوش والزخارف الشعبية لتحتل مكانة كبيرة في أجزاء اللوحة فهو يهتم بالفراغ ويحشد عناصره الشعبية ليضفي على التكوين قوة في التعبير ووضوحها في ظهور الطابع الشعبي.

وهنالك أيضاً فئة أخرى من الفنانين تناولوا في رسومهم الأشكال الأسطورية وبعض مواضيع السير والحكايات، فكان عنترة و أبو زيد والزير سالم من المواضيع التي عبروا عنها واحتلت مكانة في لوحاتهم، نذكر تجربة الفنان التونسي عادل مقديش والتي عبر فيها عن فضاءات الذاكرة وجمّع شخوصه في فضاءات الحلم، من أزمان ماضية من ملاحم، حيث تتلاقى فيها الأصالة مع الحداثة في جمع بين خبرة الفنان ودرايته العالية بتوظيف عناصر الموروث الشعبي، ذا العلاقة المباشرة بالحكايات الشعبية المروية المتداولة مثل مجموعة هلاليات المنجزة لسيرة بني هلال، فارتسمت أعماله على شكل صورة مروية لصورة الجازية الهلالية، الشكل رقم (11)

الشكل رقم (11) عادل مقاديش

وبين موروث بصري يتستند على طابع غرائبي فيه مسحة من الخيال وذلك في الفترة الممتدة بين أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينات وتواصلت إلى حدود التسعينات لكن بتغيير جزئي، حيث نجد أن الفنان عادل مقديش من خلال هذه التجربة يؤسس عالما تحكمه التصورات الغريبة والغير مألوفة تصورات سريالية في رسم الجازية الهلالية وأبو زيد الهلالي.

أما قصص ألف ليلة وليلة فقد كانت منهلا واسع للاستلهام بالنسبة للفنانين في العراق، نذكر شاكر حسن أل سعيد الذي عبر عن الكادحين في حكايات ألف ليلية وليلى وبعض الخرافات والقصص الأخرى فيها، حيث استعار من رموز حكاياتها بعض المعاني للكشف عن حالة الطبقات المسحوقة، فصور بذلك الحس الشعبي بخصائصه وسماته الشعبية العفوية والمعبرة بشكل أصيل، الشكل (11)

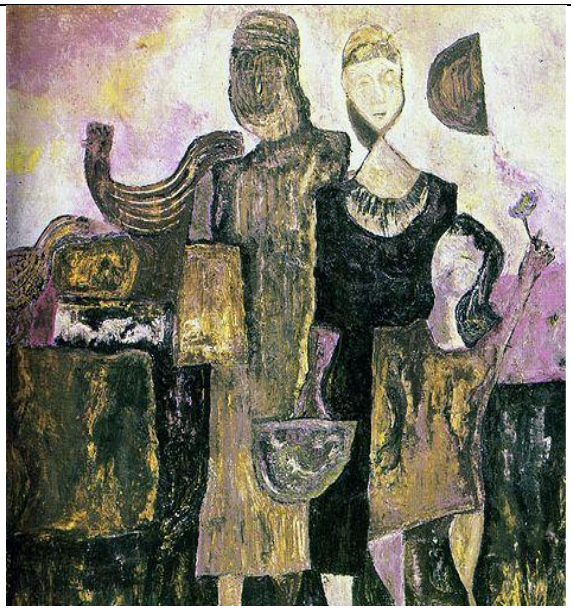

الشكل (12) شاكر أل سعيد

ومن سورية عبر الفنان نذير نبعة عن حكايا ألف ليلة وليلة بأجوائها الحالمة فصب من خلالها فلسفته عن الحب وعلاقاته بالواقع والحياة الشكل (13)

الشكل (13) نذير نبعة

وكما هو الحال في الاستلهام من الآداب الشعبية يبدو واضحاً توجه الفنانون إلى الفنون الشعبية للاقتباس من معطياتها المختلفة فهنالك فئة من الفنانين اعتمدت على الفنون التشكيلة الشعبية متمثلة بالزخارف والأشكال والرموز المستخدمة في التصوير الشعبي أو في الحرف التقليدية الشعبية وغيرها، هذا الاتجاه يراه المتأمل بوضوح في أعمال الفنانين: الجلالي، الغرباوي، أحمد الشرقاوي، امين الدمناتي (المغرب) إذا اهتم الاخير بالزخارف والاشكال المستخدمة في الوشم والحرف التقليدية الشعبية لتوظيفها في الأعمال الفنية.

في مصر ظهرت أعمال فنية متأثرة بالفنون الشعبية التشكيلية كأعمال – ممدوح عمار – عبد الوهاب مرسي – الذين استلهما من الزخارف والرموز الشعبية.

كما تبرزت الفنانون التشكيلية الشعبية في أعمال الفنانين فاتح سعيد وبكري بلال (السودان) الشكل وعبد المجيد بكري (تونس) وجعفر الصلاح (الكويت) ونوال اسكندراني وعبد الرحمن المزين (فلسطين).

أما في سورية وعلى سبيل المثال لجأ عبد القادر أرناؤوط شكل(14)

الشكل (14) عبد القادر أرناؤوط

إلى إدخال الزخارف والرموز الشعبية على أعماله الفنية ضمن تكوينات تشكيلية محكمة.

وثمة تجارب فنية أخرى اعتمدت على العمارة الشعبية التي استلهمت منها ولعبت دورا في أثراء تجربة الفنان، ويمثل هذا الاتجاه – حافظ الدروبي –(العراق) وقدرية سليم (مصر) واحمد حسين العريفي(البحرين) وجمانة الحسيني (فلسطين)

التي اهتمت ببحثها الفني بالطابع الفني المميز للعمار الشعبية الفلسطينية في القدس، وفي معظم المدن والقرى الأخرى في أجواء حالمة تعبر عن الحين والذكريات لهذا الوطن المحتل شكل (15)

الشكل (15) جمانة الحسيني

وفي سورية اهتم اغلب الفنانين بالعمارة الشعبية يذكر الباحث من هؤلاء لؤي كيالي وأسعد عرابي إذ كانت للبيوت الدمشقية القديمة الاثر الكبير في أعمال عرابي وأخذ الجزء الأكبر من لوحاته ضمن تكوين هندسي مدروس يعتمد على تنظيم الاشكال الشكل (16).

الشكل (16) أسعد عرابي

النتائج:

1- يتضح مما تقدم من عرض وتحليل لبعض الأعمال الفنية على مر العصور حقيقة الدور المتميز والمؤثر التي لعبته البيئة الشعبية في رؤية الفنانين على اختلاف اساليبهم واتجاهاتهم، مما يؤكد على أن العناصر الشعبية ستظل ذلك التجسيد الحي والصادق باعتبارها مجالا رحبا ومنهلا عذبا لفنانين كثيرين استلهموها في أعمالهم الفنية.

2- إن قضية التراث الشعبي طرحت في المشرق والمغرب العربي على حدٍ سواء، باعتباره مرآة تعكس ماضينا، تدفع بتوجهاتهم نحو إثبات ملامح الشخصية العربية في زمن الحاضر والراهن.

3-محاولة الفنان العربي على التأكيد على أصالته وصدق إحساسه وانتمائه إلى بيئته الشعبية، عكس كل ذلك في نتاجه الفني، الذي يعتبر توثيقاً للمفاهيم والأفكار التي كانت سائدة في مجتمع ما، وهي تفرض علينا اليوم إعادة النظر إلى الموروثات بكل أطيافها بعين معاصرة وإعادة الاعتبار لها والتأكيد على الهوية الثقافية والعمل على حمايتها من التفكك والاندثار.

4- سعى رواد الفنانين الشعبيين العرب إلى انتهاج أسلوب فني نرى فيه تقنيات غربية حديثة لمضامين تراثية شعبية، فأتت نتاجاتهم تجمع ما بين التقنية والموضوع في خطابات جمالية وتوثيقية تمثل علامات ذات خصوصية قادرة على التكيف مع معطيات العصر، ومتطلباته.

التمويل: هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل (501100020595).

http://journal.damascusuniversity.edu.sy/index.php/index/index
ISSN (online): 2789-6854

References

1. رياض، عبد الفتاح، التكوين في الفنون التشكيلية، دار النهضة العربية، ط1، شارع عبد الخالق ثروت، مصر، القاهرة،1986.
2. ريد، هوبرت، معنى الفن، ترجمة: سامي خشبة، مراجعة مصطفى حبيب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (د،ت).
3. تعريف البيئة، www.almaany.com
4. القاموس المحيط.
5. أحمد بن فارس القزويني، معجم مقاييس اللغة، تح، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ج1، 1979.
6. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1982.

عكاشة: د. ثروت. الإغريق بين الأسطورة والابداع – دار المعارف بمصر.

الخادم: سعد. تصويرنا الشعبي خلال العصور – دار القلم.

بهنسي. د. عفيف. تاريخ الفن في العالم – مطبعة الشركة العربية (1966).

الفن القطبي في مصر 2000 عام من المسيحية.

بتصرف، الفنان التشكيلي السوري ممدوح قشلان للمجلة الثقافية الجزائرية، https://thakafamag.com

الفنون الشعبية، سلسلة الثقافة الشعبية، الجامعة الشعبية بالقاهرة.

مجلة ابداع، العدد الأول – يناير عام 1948، القاهرة.